يأخذ التّواصل في بعده السيكوبيداغوجيّ قيمة تجعله أساس انتظام علوم ترتبط بالإنسان، فلا يمكن تصوّر تجاهل التّقاطعات العلميّة في ما يجلّيها، في تحليل ينشدّ إلى التّربية بوسائلها الّتي تتقدّمها المدرسة بشكل بارز يحجب، في الوقت الرّاهن، أدوار المؤسسات الأخريات؛ تُحوّلها التّشابكات الطبيعيّة في محوريّة تستجيب لها كافّة العلوم، الدّقيقة وغير الدّقيقة، في رؤية تناظميّة،[1] تُحدّد موضوع التّواصل إشكاليّة حيوات ترتد في المفهوم المعاصر للمدرسة، اعتبارا لصورتها النّسقيّة المصغّرة للمجتمعات، فتنفتح على معارف يستجلبها الموقف غير المصطنع، حيث التّواصل المقارباتيّ يتيح إمكانيّة الاستمراريّة؛[2] تسير فيها العلوم، دون استثناء، في نظام دقيق، ييسّر تشخيص أمراض العلاقات، بتباين أطرافها، الّتي تتجاوز الفرد إلى الجماعة، وإلى التّقنية في كينونة تفسّر فلسفة وجود الإنسان.

تجيب نظريات التّواصل المعاصرة على إشكاليّة هذه الرؤية التّناظميّة بمقالات، بحاجة إلى قراءة وتحليل وربط في الطّرح، ضمّها كتاب" التّواصل...نظريّات وتطبيقات"، أشرف عليه محمد عابد الجابري؛[3] يتكيء على مشارب علميّة، من التّحليل النّفسي إلى اللّغة والتّواصل، مرورا بالفلسفة وإشكاليّة التّواصل والسيميولوجيا، في استحضار محدّث بالتّقنيّة،[4] يضع السوسيولوجيا الثّقافيّة، بمساءلتي الشّخصيّة، في إحراج، بمحك الظّاهر والمعنى في الحياة الإنسيّة. تختفي في الظّاهر استفهامات تحيط بأساس التّواصل، حيث استدعاء أزمة التّحليل النّفسي، بحدّ تعبير إريك فروم؛[5] غوصا، في موضوع اللاّوعي في التّواصل، بتبنّي مقال حسن مستر"لاوعي التّواصل"؛[6] تنكشف به، أي هذا الاستدعاء، إعادة بسط موضوع التّواصل بخلفيّة تقويضيّة من جهة، ومحدّثة من جهة ثانيّة، ما يسمح بطرح سؤال منهجيّ يجيب على محدّدات التّواصل الدّوغمائيّة، بفعل منهجيّ دوغمائيّ كذلك؛ ننجر بذات الاستدعاء إلى التّدرج الزّمنيّ لموضوع الاتّصال، في ربط، يضع اللّسانيّات والسيميائيّة وعلم النّفس السّلوك وعلم النّفس الاجتماعيّ التّحليليّ... قاعدة اشتغال في تفكيك أزمة التّواصل، بتعبيري، الّذي يعيد موضعة عصرنة التّواصل في نسبيّته إلى تحيين هذه العلوم والعلوم الدّقيقة في انكشاف النّظام التّواصليّ.

مسألة التّحليل النّفسي تتجذّر في ما قبل أفكار سيغموند فرويد، وفي المساهمات ذات الأساس النّقديّ لسيكولوجيّته، بثنائيّة قدّمتها روزا لوكسمبورغ بسؤال خفيّ، أيّهما أسبق في تحديد العلاقة بين الوعي واللّاوعي؟، وفي تأكيدها للسّبق الماركسيّ تُعلّم المقارنة بين منطق السّياق التّاريخيّ والمنطق الذّاتيّ للكائنات الإنسانيّة الّتي تشارك في هذا السّياق التّاريخيّ مرجعيّة جدل؛ ترتبط فيها الإيديولوجيا بمظاهر عقلانيّة، تحجب الدّوافع الحقيقيّة، في نشاطات مصدرها المجتمع الطّبقيّ.[7] يقرن المقام أزمة التّواصل بأزمة التّحليل النّفسيّ، بعيدا عن المقابلات العيّاديّة، أين تنحصر العلاقات في العلاج، ذلك أنّ إشكاليّة التّواصل هي في جوهرها إشكاليّة إصغاء تعدم الحوار بخطرين، خطر الدّوغمائيّة والنّسبويّة؛ ما يحدّد الاستمراريّة في هذين الخطرين، في اتّجاه تكامل الرّؤى، هو الأساس المشترك الّذي يسمح بالتّواصل، في التّقليص من الأفكار الدّوغمائيّة والنّسبويّة؛ وفي هذين الشّرطين، الاستمراريّة وتحديد الأساس المشترك، يختفي شرطان آخران، حدّدهما إريك فروم قاعدة للحوار، القدرة على الإصغاء والثّقة بالآخر.[8] هنا، ينكشف جوهر هذا التّحديد، بسؤال مشروطيّته، أي ماهو شرط قيّام القدرة على الإصغاء والثّقة بالآخر؟ وبلغة ريّاضيّة دقيقة، ماعلاقة الانعكاس بالتّناظر؟ ومن ثمّة بالتّعدّي؟، وهل يمكن أن تنوجد هذه العلاقات في الفراغ؟.

---

[1] صغير بورقدة، التناظمية ...رهان فعل المعرفة، مجلة الأبحاث،

[2] صغير بورقدة، التواصل المقارباتي في السياق المدرسة، مجلة العلوم القانونية والاجتماعية، سنّة 2، (2021)، 357-347.

[3] محمد عابد الجابري، التواصل...نظريات وتطبيقات ( بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2010)، 5.

[4] المصدر نفسه، 6.

[5] إريك فروم، أزمة التّحليل النفسي(بيروت: المؤسسة الجامعية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، 1988)، 9.

[6] الجابري ، التواصل...نظريات وتطبيقات، 11.

[7] فروم، أزمة التّحليل النّفسيّ، 71.

[8] المصدر نفسه، 11.

يدخل سؤال الانعكاس، بمفهومه الرّياضيّ الحديث، بمفهوم المتغيّر الّذي يموضع الأفراد تبعا للعلاقة، وفي بعد تواصليّ يحدّد مجموعة تعريف ومميّزات كلّ طرف في التّواصل بناء عليها، وليس في خروج عنها، هذه الرّؤية صرفت الباحث حسن مستر إلى تبنّي التّعبير عنها بـــ:" كلّ يصل إلى هويّته انطلاقا ومن داخل نسق من الأماكن يتجاوزه؛ وهذا المفهوم(المكان) يقتضي أنّه ليس من خطاب يُرسل إلاّ من مكان معيّن ويدعو المخاطب إلى مكان مقابل؛ فإمّا أن يفترض هذا الخطاب أنّ علاقة المكان قائمة وفعليّة، وإمّا يفترض أنّ المتكلّم ينتظر الاعتراف بمكانه الخاص أو يجبر مخاطبه على الانخراط في العلاقة"؛[9] والسّؤال الّذي نعود به إلى التّحليل النّفسيّ، ما دور الانعكاس في العلاقات؟، أو بالأحرى، ما قوّة الانعكاس الّتي تمكّنه قاعدة ترتدّ إليها كلّ العلاقات؟. نجد الإجابة في ماهيّة التّحليل النّفسيّ، حيث الهدف أن أعرف ذاتي، بشكل أكثر تطوّرا، يضع ما وصلت إليه المعرفة في سؤال متجدّد يبحث صوغا متجدّدا لمعرفة الذّات، لهذا نجد إريك فروم، مثلا، يسمّي واحدا من مؤلفاته بـــ"أزمة التّحليل النّفسيّ"، في إشارة إلى تحديث المعرفة في السّياقات غير الثّابتة، الّتي تعطي المعنى الوظيفيّ للتّحليل النّفسيّ؛ يسحبنا إريك فروم في معرفة الذّات، تجاوزا لخطري الدّوغمائيّة والنّسبويّة، إلى الشّموليّة النّسبيّة بقوله:"وبالفعل تُسفر الأنظمة الأخلاقيّة لكل الثّقافات الكبيرة عن تشابه مدهش فيما يُعدّ ضروريا لنمو الإنسان، الّذي تنبع معاييره من طبيعة الإنسان والشّروط الضّروريّة لنموّه".[10] يُفيد الرّبط بالطّبيعة والتّشابه إلى إمكانية تحديد منطقة التّلاقي بين الأفراد، بالحوار الّذي يُضمحل كلّ من الشّموليّة والنّسبويّة في اتّجاه قاعدته، بسؤال يمكّن من الانعكاس، بسبيل الإصغاء إلى الذّات، بالارتداد الّذي تضمنه الشّروط الضّروريّة للنّمو، وبالتّشابه الضّامن للعلاقات؛ لم يعد المحدّد البيولوجيّ، في خضم الانغماس في المجتمع المادّي، يكفي في التّحليل النّفسيّ الكلاسيكيّ، من أجل ذلك يحصل الارتداد أو الانعكاس في تشكيل رغبات تُخرج منهج البحث من مبدأ الغرائز ذي الارتباط بالشّرط الماديّ، حيث الجنسيّة وحفظ الذّات مصدر اللّيبيدو واللّيبيديّة، في تفرقة بين الطّاقة الملازمة للغريزة الجنسيّة والسّيرورات النّفسيّة الّتي تغذّيها تلك الطّاقة، في سيّاق التّلازم بين الجسم واللّذة. ما حمل المنشقّين عن الإطار التّكوينيّ الفرويديّ، مثل إريك فروم، على مراجعة فهم النّفس بمتغيّرات ظروف تبرّر وتسوّغ حاجات أبعد عن الحيوانيّة، تضع العلاقات في المجموعات سياقا إنسانيّا، تبلوره أساسيّات الانتماء، الجذور، الهويّة، في إطار توجيهيّ.[11]إذن، نحن أمام سؤال جدير بالانطراح، في أقوى الحاجات الّتي تبعدنا عن الحيوانيّة، وفي ارتباطها بمفهوم العلاقة في المجتمع، في أيّ علاقة يحدث الانعكاس؟، فروم في سلسلة مؤلّفاته يشرح مصطلح "إدراك الانفصال" بالوعي، فبعد أن أصبح آدم وحواء واعيين بنفسهما وبكلّ منهما بالآخر، أصبحا واعيين بانفصالهما وباختلافهما بقدر أنّهما ينتميان إلى جنسين مختلفين، ويضيف في الشّرح، إنّ إدراك الانفصال الإنسانيّ بدون الاتّحاد من جديد عن طريق الحبّ، هو مصدر العار.[12]

---

[9] الجابري ، التواصل...نظريات وتطبيقات، 16.

[10] إريك فروم، الإنسان من أجل ذاته: بحث في سيكولوجيّة الأخلاق(بيروت: المؤسسة الجامعية للدّراسات والنّشر والتّوزيع، 2007)، 15.

[11] إريك فرزم، الإنسان بين الجوهر والمظهر(الكويت: عالم المعرفة، 1989)، 8.

[12] إريك فروم، فنّ الحب(بيروت، دار العودة، 2000)، 20.